الضيافة

حظيت الضيافة بالعديد من الأمثال الشعبية التي أوضحت مختلف جوانبها، وفصلت العلاقة بين الضيف ومضيفه، فالعربي إجمالاً، تعامل مع الضيف بما يستحقه من تقدير واحترام، فإكرام الضيف مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعادات وتقاليد وأخلاقيات المجتمع، والذي لا يكرم ضيفه هو (ردي الخال) الأمر الذي ينعكس على سمعته وعلاقة المجتمع به وتعاملهم معه لاحقاً.

والأمثال التي تحدثت عن الضيافة تناولتها من جوانب ثلاثة هي:

ما يتعلق منها بالضيف

ما يتعلق منها بالمضيف

ما يتعلق منها بواجبات الضيافة وشروطها

ولم يحدد المثل الشعبي الفئة التي تحدث عنها في موضوع الضيافة، فهي تشمل البدو والفلاحين وأبناء المدن، الأغنياء، منهم والفقراء، أصحاب النفوذ والمواطنين العاديين، لا فرق بين أحد وآخر في موضوع إكرام الضيف واحترامه، إلا في ما يتعلق بإمكانيات المضيف وقدراته المالية، مع التأكيد على ضرورات الحد الأدنى من التعامل في هذا المجال.

وربما كانت القهوة عند الكثير من شرائح المجتمع هي أول ما يقدم للضيف، دون أن يسأل عن حاجته، فإن إطعامه وتوفير المبيت له وحمايته إذا تطلب الأمر، كلها مت واجبات الضيف التي يجب تنفيذها والتأكيد عليها.

وفي العديد من المناطق الشعبية فإن أبناء الحي الواحد أو المنطقة الواحدة أو القرية الواحدة، كانوا يتعاونون مع بعضهم البعض، لتقدير واجب الضيافة لأي زائر لأحد منهم.

وقد حددت الأمثال الشعبية صفات واضحة للضيف الذي صنفته على نوعين:

- واحد يحتفى به ويستحق الاحترام والتقدير، ويتطلب من المضيف تلبية طلبات، وقال فيه:

- حجة الضيف ثلاثة تيام وثلث

فنجان للضيف وفنجان للكيف وفنجان للسيف

وآخر ثقيل الدم والظل لا يحتفي به بالشكل الملائم، لأنه يتعدى حدوده ويخرق التقاليد التي حددها واجب الضيافة:

- **وسعنا لو دخل هو وحماره**

- **ضيف وبايدو سيف**

طز طز وعينه ع الزلابية

وإذا كان المثل الشعبي قد حدد طبيعة وصفات الضيف، فإنه حدد كذلك طبيعة وصفات المضيف أيضاً، الذي جاءت صورته في المثل الشعبي على نوعين:

- **كريم**

- **بخيل**

وبقدر ما كان المثل الشعبي منحازاً للكرم ومشجعاً له على أداء واجبه الاجتماعي والأخلاقي، فإنه كان قاسياً على البخيل، رافضاً لمسلكيته، وعاداً أياها من الصفات الذميمة التي يجب أن تكون مرفوضة في المجتمع.

وقد جاءت عدة أمثال تتحدث عن الكريم وعلاقته بضيفه الذي يفرح به ويقدم له كل ما يستطيع.

يللي جاي بالليل ومتعشي تع الظهر وشوف

الشبعان إلو أربعين لقمة

فيما تهكم المثل على البخيل وجعلوا منه مادة للسخرية، حين يقول في وصف علاقته بضيفه:

بكره الضيف وزوادته معه

قهوة حلوة ولا مرة ولا بلاش بالمرة

تتعشى ولا تنام خفيف

وقراءة متأنية في مجموعة الأمثال الشعبية التي عالجت موضوع الضيافة، نرى أنها لم تترك العلاقة عائمة وغامضة بين الضيف ومضيفه، بل حددت مجموعة من الشروط والمسلكيات التي يجب على الجهتين إبتاعها، وحتى تستقيم الأمور، ويعرف كل ذي حق حقه، فنراها تخاطب الضيف حاثة إياه على التقيد بهذه المسلكيات:

يا رايح بلا عزيمة يا قليل القيمة

صابح القوم ولا تماسيهم

ضيف المسا ما لو عشا

أكل الرجال ع الرجال دين وع الانذال صدقة

الضيف أسير المحلة

يقابلها مجموعة من المسلكيات التي يتوجب أن يتحلى بها ويمارسها وهو يقوم بأداء واجبه تجاه ضيفه.

فهو يقول:

الضيف ضيف الله

لاقيني ولا تغديني

اللي بدو يصير جمال بوسع باب داره

إن عرفت تغيّب غيّب، وإن وقعت صبير زلمة طيب

قهوة الظهر من العمر

لقد تعامل المثل الشعبي، مع موضوع الضيافة بمسوؤلية واهتمام واضحين، دون أن يحدد لها موقعاً أو عنواناً، فالجميع معنيون بشروط الضيافة وواجباتها، لأنها تمثل سمة بارزة من أخلاقيات المجتمع، الذي يظل المثل الشعبي حريصاً على إشاعتها وتبينها والدفاع عنها وتعميم صفاتها.

وإذا كانت القهوة هي أول ما يتناوله الضيف عند نزوله في أي مكان، فإن الشاي اليوم أخذ ينافس القهوة في بيوت الفلاحين، في ما يمكن أن يكون العصير بأنواعه أيضاً قد دخل موضوع المنافسة عند أهل الريف والمدن على حد سواء.

الصداقة

أن (الإنسان مدني بالطبع) ولأن (الموت مع الجماعة رحمة) ولأن (الجنة بلا ناس ما تنداس)، فإن المثل الشعبي وظف هذا الفهم في تفسير العلاقة مع الآخرين، معطياً مساحة من اهتمامه للصداقة والأصدقاء، فقد فضل الجار الطيب والصديق الوفي على الأشقاء والأقرباء البعدين، لأن الإنسان له مطلق الخيارات في اختيار صديقه، في حين تنعدم هذه الخيارات تماماً في العلاقة مع الأهل والأقارب.

والأصدقاء في الحكمة والأقوال العربية المأثورة هم ثلاثة أنواع:

الصديق.. وصديق الصديق.. وعدو العدو

وقد أفاد المثل الشعبي من هذا التقسيم فقال:

عدو عدوي صديقي

والصديق مهما كانت درجة العلاقة الوثيقة معه، فإنه يظل في مرحلة لاحقه من الاهتمام، ترجمها المثل الشعبي بقوله:

بعد نفسك خص صديقك

أنفع صاحبك بشي ما يضرك

أخوك أخوك.. ما يغرك صاحبك

الدارس للفهم الذي جاء به المثل الشعبي للصداقة والأصدقاء، يرى هذا الاهتمام وهذه الثقة الكبير، فالنفس البشرية ترتاح للأصدقاء المخلصين، في أي زمان وأي مكان، وهذه الحقيقة جسدها المثل الشعبي بقوله:

بيت الضيق بيسع ميه صديق

اللي شاف أحبابه نسى صحابه

ولأن المثل الشعبي اهتم بالأصدقاء ودافع عن مفهوم الصداقة، فقد حذرهم من الأمور التي يمكن أن تتسبب في إثارة الخلاف بينهم، وأول ما حذر الأصدقاء منه هو

تشابك العلاقات المادية التي تغري بإفساد الصداقة والأصدقاء، لذلك نراه قد وقف منها موقفاً حذراً، داعياً أن تكون العلاقة بين الأصدقاء خالية من أي مردود أو تعامل مادي:

حاسب صاحبك ولا تخونه

إذا بدك تحب صاحبك دوم، حاسبه كل يوم

صاحبك اللي بدك تبقيه، لا توخذ منه ولا تعطيه

لاحق صاحبك ولا تعدمه

ومع هذا فقد كان المثل الشعبي حاسماً مع نوع مختلف من الأصدقاء، ما يطلق عليهم أصدقاء السوء، الذين يستغلون العلاقة مع الآخرين لتحقيق مآرب وغايات شخصية، فإذا كان المثل الشعبي متسامحاً مع الأصدقاء الطيبين، مؤكداً على الحفاظ على العلاقة معهم وحمايتهم من الأخطاء، فإنه كان حاسماً أيضاً مع النوع الثاني الذين يتصرفون بمنطق أحادي النظرة ضيق الجوانب.. منطق تسوده النظرة والتفكير الأناني.. فقال:

إن طلع صاحبك طماع، أعمل حالك غشيم حساب

موظفاً المثل العربي الفصيح الذي يقول:

عدو عاقل خير من صديق جاهل

في فهمه وفلسفته الحياتية، وإذا كان الشاعر العربي قد قال:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدي

فإن المثل الشعبي نقل لنا الصورة نفسها تقريباً حين قال:

اللي بصاحب النورية بحمل دفها

كدليل واضح على انسجام الصفات والأفعال بين الأصدقاء من مختلف الشرائح الاجتماعية.

واعتماداً على مجموعة الأمثال الشعبية التي بين أيدينا، والتي تتخذ من الصداقة والأصدقاء مادة وموضوعاً لها، فإنني أهذب إلى القول أن هذه الأمثال قد صيغت على

لسان فقراء الشعب، الذين تمثل الصداقة جزءاً أساسياً من أخلاقياتهم التي يتمسكون بها ويدافعون عنها، في الوقت الذي أذهب فيه إلى الاعتقاد أيضاً بأن الأغنياء ورموز السلطة لا تعنيهم مثل هذه الأمثال، لأن نظرتهم وموقفهم المادي هو الذي حدد ويحدد علاقاتهم بالآخرين، لذلك لا نرى مجالاً لإقامة علاقات إنسانية بينهم، بعيدة عن حسابات الربح والخسائر.

الحظ

لا نبالغ إذا قلنا أن المواطن.. انطلاقاً مما بين أيدينا من أمثال شعبية، قد اعتمد على الحظ وآمن به، وتعامل معه على أنه وسيلة من وسائل الرزق والعطاء، لذلك جاء التعبير عن الحظ صريحاً حيناً، وضمنياً حيناً آخر، في الأمثال، إلى درجة أن بعضها عدّ الحظ نقيضاً للعمل وبديلاً له:

اللي مالو حظ لا يتعب ولا يشقى

لقد تعامل المثل الشعبي مع نوعين من الناس، فهناك المحظوظون، وهناك عديمو الحظ، فالمحظوظون هم السعداء، أصحاب الرزق، الذين جاء ذكرهم صريحاً وواضحاً في الأمثال:

فلان حظو بين رجليه

اللي يسعدها زمانها بتجيب بناتها قبل صبيانها

أول بختك كرسي تحتك

اللي الو بخت يحط رأسه وينام

قيراط بخت ولا قنطا شطارة

السعد وعد

وعديموا الحظ وصفهم المثل الشعبي بالتصريح قائلاً:

اللي ما لو بخت لاقي العظمة في الكرشة

بخت عوايه ولا بخت قراية

فيما كان التلميح والتعبير الضمني عن قلة البخت، نصيب عدد من الأمثال الشعبية، جاء معظمها على لسان هذا الصنف من البشر:

وين كانوا هالركاب لما كنا مكاريه

المتعوس متعوس ولو علقوا ع بابه فانوس

تاجرنا بالكفان بطلت الناس تموت

زرعنا اللوز طله بقدونس
التم المتعوس ع خايب الرجا
عملوك مسحر خلص رمضان
بركض بركض والعشا خبيرزة
أجت الحزينة تفرح ملقتلهاش مطرح
ع بخت الحزينة سكرت المدينة

وهكذا يمكن القول أن الكسالى من الفلاحين وغيرهم هم الذين يقفون وراء انتشار مثل هذا النوع من الأمثال وتعميمه، ولا استبعد أنه لقي مواقفه، وقبولاً من الطرف الآخر في معادلة الصراع الطبقي والاجتماعي، وأعني به الإقطاعيين والأغنياء الذين اعتمدوا على قوة عناصرهم المادية في الصراع.

والحظ في الأمثال تعبير عن نوع من التسليمية والعجز، لذلك يصبح الحظ قوة مواجهة للعجز والتكاسل.

ولا استبعد أيضاً أن تكون أمثال الحظ التي وصلتنا عبر الأجيال المتلاحقة تعبيراً عن فلسفة استسلامية، بسبب عدم توازن العلاقات الاجتماعية، واستشراء الاستغلال والقهروالمحسوبيات...الخ، وقد جاءت أمثال الحظ هذه لتسوغ هذه الفلسفة الشعبية.. مدعومة من الطرف الآخر الذي يريد للفلاحين الركون إلى الحظ والتمنيات البعيدة التحقيق، مكتفياً هو بالعمل ومستغلاً ضعفهم واستسلامهم لتحقيق مآربه.

وما يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن الفلاحين ليسوا وحدهم وراء تعميم وانتشار هذا النوع من الأمثال.. أنها تناقض بعض النصوص الشرعية والدينية التي آمن بها المجتمع.

يقول تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

ويقول (ﷺ) : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

وفي هذا دعوة صريحة للعمل. الذي لا يعتمد على الحظ ولا يؤمن به.

الشرف

قد يبدو للوهلة الأولى أن المثل الشعبي قد حد من تصرفات المرأة وذهب إلى تقييدها، عندما ربط العائلة بتصرفاتها، فالمرأة هي نصف المجتمع ولا يمكن تقييد حركة هذا النصف، الذي يعني ضرباً لحركة المجتمع كله، لذلك فإننا نجد أمثالاً شعبية انصفت المرأة وسمحت لها بالتحرك بين الرجال، لكنها تظل على كل حال حركة محسوبة، وتخضع لرقابة مشددة، غير أنها ليست ممنوعة، وهذا بحد ذاته يدل على وعي اجتماعي مبكر لدور المرأة وحركتها.

فالمرأة هي من تستطيع أولاً وأخيراً حماية نفسها والدفاع عن شرفها، ومن ثم إبعاد العار والذل عن أقربائها من الرجال، أنها مسؤولية المرأة أولاً، والمثل الشعبي أعطى المرأة دورها في ممارسة هذه المسؤولية.

مرة وأخت رجال

بنت الرجال ما بتخاف من الرجال

لكن هذا الانحياز للمرأة ودورها، ظل انحيازاً مشروطاً، انحيازاً مقترناً بالرجال أخوه وآباء، أي ليس انحيازاً للمرأة بنفسها أو بوعيها أو بمكانتها الاجتماعية.

وقد أولى المثل الشعبي التربية أهمية استثنائية، وجعلها شرطاً مهماً من شروط تكوين المرأة النفسي والسلوكي، وفي هذا الجانب تتحمل الأسرة المسؤولية عن تربية أبنائها تربية صالحة، تتحمل مسؤولية كبيرة في هذا المجال:

دلل ابنك بغنيم، دلل بنتك بتخزيك

لكن التربية على أهميتها، لن تقف مانعاً أمام الإنشداد للأصل الذي عُد (غلابا) من وجهة نظر صائغي المثل الشعبي، فالأصل الطيب مضافاً إلى التربية الصالحة، وسيسهم في تكريس أخلاقيات طيبة عند المرأة بشكل خاص، وعند المجتمع عموماً:

طب الجرة ع ثمها بتطلع البنت لأمها

خذ الأصيلة ولو أنها على حصيرة

فالأصل هنا تغلب على الجاه والمال والعدم، وكانت له الأولوية في اهتمام المثل وصائغيه، لكن لمل قاعدة شواذ، وهذا ما أقر به المثل الشعبي الذي اعترف بحالات خاصة لا ينفع معها الأصل ولا التربية، فقال:

أختين من صرة، وحدة قحبة ووحدة حرة

كان المثل الشعبي حازماً في موضوعة الشرف والعرض، وكان حازماً أيضاً في النظرة إلى النساء الساقطات خلقياً، لذلك جاءت أحكامه قاطعه لا تحتمل ثنائية التفسير، فالتهاون في موضوع كهذا يمكن أن يؤدي إلى خلخلة الموازين الأخلاقية في مجتمع يعطي الأخلاق كل هذه الأهمية.

وإذا كان واضحاً من طبيعة صياغة هذه الأمثال الشعبية أنها أمثال قيلت على لسان الفلاحين، وعبرت عن موقفهم ونظرتهم وهمومهم، فإن الأغنياء أو الإقطاعيين لم يذهبوا هذه المرة إلى صياغة أمثال خاصة بهم في هذا الموضوع، ربما لأن قضية الشرف والعرض قضية تعني الجميع، بغض النظر عن انحدارهم الطبقي، أو وظيفتهم الاجتماعية.

ونرى أن المثل الشعبي كان ساخطاً على النساء الساقطات خلقياً، وتعامل معهن بشيء من الحدة والدونية، إلى درجة أنه فضل عليهن الحيوانات في بعض الأحيان نتيجة تصرفاتهن المنكرة:

للكلاب ولا للقحاب

إن تابت القحبة بتعرص

وهي دعوة إلى عدم الثقة بهذا النوع من النساء الساقطات، لنهن فقدن الأهلية والاحترام في نظرة المجتمع إليهن.

ربما كان الحرص على نقاء النسب، وعدم اختلاطه، هو وراء كل هذا الحرص الذي أبداه المثل الشعبي في هذا الجانب، متمثلاً بذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي نبهن إلى هذا ودعت إلى المحافظة عليه والاهتمام به.

والشرف ليس موضوعاً قابلاً للنقاش أو المساومة عند الناس، أنه يحتل الأولوية المباشرة في الحياة العامة، والتفريط به سيعرض صاحبه إلى المقاطعة والاحتقار، لذلك كان المثل واضحاً في رسم صورة (العرض) وصورة النظر إليه والتعامل معه:

ألعب وعاشر والعرض مش داشر

العرض ما بنحمي بالسيف

بل أن طرائق حمايته يأتي من الحصانة الداخلية من الوعي والتربية الصحيحة الصالحة.

والمثل الشعبي نظر إلى العيب كنقيض للشرف، لأن (العيب) حين يصدر عن شخص عامداً متعمداً، فإن شرفه (بحالته المطلقة) يكون في موضع شك ومثار وأسئلة كثيرة، لكن المجتمع يمكن أن يقبل هذا (العيب) من شخص صغير السن غض التجربة، في الوقت الذي يرفضه بحزم من كبار السن والتجربة.

شايبة وعايبة

العيب أن طلع من أهله مش عيب

منسجماً مع (إذا لم تستح فافعل ما تشاء).

والمرأة الشريفة التي أنصفها المثل الشعبي، وعدها قدوة ومثلاً صالحاً، امرأة تتصف بسمات عديدة، لعل أبرزها وأهمها الخجل والحياء، فالمرأة (المستورة) يجب أن تكون حيية بالضرورة.

بتستحي من الديك ومن بعبوزة الأبريق

ومثلما وقف المثل الشعبي مع المرأة الشريفة ودان المرأة الفاسقة، فإنه لم يتساهل أيضاً مع الرجال الذين يمارسون ما يناقض مفهوم الشرف، لذلك نرى المثل واضحاً في التشخيص، راسماً صورة جلية لما يريده من المجتمع، ما نهى عنه من الممارسات التي تثير الشبهة والشك:

الخاين بخون والزاني يخاف ع مرته

من عاشر الأشراف بتشرف، ومن عاشر الأنذال بموت حزين

ويظل موضوع الشرف والعيب مقترناً بكلام الناس، الذي يقود حتماً إلى الفضائح، لذلك كان المثل حريصاً على الكتمان، غير فضائحي، امتثالاً للأخلاق العامة التي جاء بها القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، التي كان لها دور واضح وأساسي في بنية الأمثال الشعبية وموضوعاتها.

غير أن أشنع تلك الفضائح وأكثرها قسوة هي تلك التي يسميها المثل الشعبي:

فضيحة وعليها شهود

الأرقام

تدخل الأرقام والعمليات الحسابية في كل شيء، وهي ضرورية جداً في حياة الفلاح، ليست الأرقام لعد النقود، فقط كما يتصور الإقطاعيون والمرابون وكبار التجار، بل هي تدخل في حساب كل شيء، يستعملها الفلاح ليعد كم شجرة مثمرة في بستانه، أو كم عدد خرافه وغنمانه، كما تستعملها زوجة الفلاح لتعد دجاجتها أو غير ذلك من الاحتياجات.

وللاختصار في العمليات الحسابية فقد اخترعت الذاكرة الشعبية مجموعة مصطلحات تدل على أرقام محددة، لتسهيل العمليات الحسابية، فهناك (الطورة) التي تدل على أطفاله، فيكون التوزيع هنا على أساس (الطورة) أي أربع حبات لكل منهم.

ثم هناك (الطرحة) وهو مصطلح تستعمله النساء تحديداً، وفي الطوابين بشكل خاص، فالمرأة عندما تريد أن تخبز (طرحة) في طابونها، فمعنى ذلك أنها تريد أن تخبز سبعة أرغفة، لأن الطرحة تساوي سبعة أرغفة، وهي ما تستوعبه قاعدة الطابون.

واستعراض للأرقام والأعداد التي جاءت في الأمثال الشعبية، نرى أنها أعداد صغيرة، إذ ابتعدت الأعداد والأرقام الكبيرة من التداول، وذلك حسب ما نعتقده متأتٍ من الأسباب التالية:

فالفلاح عادة، أما أُمي أو هو بقرأ وبكتب في أحسن الأحوال، أي أن حظه من التعليم قليل.

إضافة إلى أنه فقير مادياً أو متوسط الحال، يعيش يومه معتمداً على الموسم في كل الأحوال.

هذه الأسباب جعلت تعامله مقتصراً على الأرقام الصغيرة، مبتعدة به عن الأرقام الكبيرة.

إن الأرقام من واحد إلى عشرة هي الأرقام الأكثر استعمالاً والأكثر تداولاً في هـذا المجال، غير أن ذلك لا ينفي استعمال أرقام كبيرة، وبأمثال محدودة ومعدودة أيـضاً، إذ أن الرقم مائة والرقم ألف هما الرقمان الأكثر استعمالاً من فئة الأرقام الكبيرة.

ثم أن استعمل الأرقام – حتى الصغيرة منها – أما ناتج عن التأثر بالقرآن الكـريم أو الأحاديث النبوية الشريفة، أو ناتج عن التأثر بالأساطير والمعتقدات الشعبية.

ومن ذلك قول المثل (كلنا أولاد تسعة) في إشارة إلى أن فترة الحمل عند النساء هي تسعة أشهر.

أو قوله (مثل البسة بسع أرواح) في إشارة إلى أن القطة لها سبعة أرواح.

وهناك مجموعة من الأمثال التي اعتمدت على الأرقام واتخذتها موضوعاً لها، وهي أرقام محصورة بين الواحد والعشرة، كما يأتي:

اثنين ضعاف قدروا لواحد قوي

عصفور في الأيد ولا عشرة ع الشجرة

زاد اثنين بكفي ثلاثة

فلان ما بعرف ثلث الثلاثة قديش

فلان ما بعرف الخمسة من الطمسة

أما الأربعون فهو رقم أخذ حصة واضحة من الأمثال الشعبية التي تحدثت عنه، أو اتخذته حكماً ودليلاً لها.. ومن ذلك قول المثل:

ربك بيخلق من الشبه أربعين

عيار الشبعان أربعين لقمة

من عاشر القوم أربعين يوم يا بيصير منهم يا برحل عنهم

المرأة بتحب يوم وبتكره أربعين يوم

أما المائة فكانت لها حصتها أيضاً، ربما لأن المائة رقـم مكتمـل، أو هـو نهايـة دورة عددية، فقد جاء في الأمثال:

مية جبان ولا الله يرحمه

مية عين تبكي و لا عين أمي تبكي

مية قلية ولا غلبة

بيت الضيق بسع مية صديق

حرامي الدار كيع ميه حارس

اكسره جاه ميه، ولا جاه وليه

ونظرة لهذه الأمثال نرى أنها مكونة من مقطعين، مقطع يقبل بالأمر الواقع القاسي والمرير، ومقطع يصر على الرفض والنفي لوقوع الأحداث التي تمس الشخص نفسه، وإن استعمال رقم مائة في هذه الأمثال هو للمبالغة وللتعظيم، لما كان يشكله الرقم (100) من بعد عن متناول يد الفلاح، وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات النقدية.

أما الرقم ألف فكانت حصته أقل، ربما لبعده القصي عن اهتمام الفلاح ومتناول يده، فقال المثل:

غلطة الشاطر بألف

وهي تحمل في طياتها التحذير من الوقوع في الخطأ وخاصة (للشاطرين) الذين يفترض أنهم يقدرون الأمور والعواقب قبل وقوعها.

وانطلاقاً من المثل الشعبي القائل:

الشهر اللي ما الك فيه لا تعد أيامه

فإن الفلاحين إجمالاً بنوا فلسفتهم على مادة هذا المثل، فكان الذي لهم قليل، إذا ما قورن بما للإقطاعيين، ولذلك فإن الأرقام التي حملتها الأمثال الشعبية، جاءت في معظمها أرقاماً صغيرة، يمكن أن تكون في متناول هؤلاء البسطاء، الذين يقفون في أغلب الظن وراء صياغة هذه الأمثال وتعميمها.

الأسماء

المتتبع لقائمة الأمثال الشعبية، والدارس لها، لا بد أن يقف أمام هذا العـدد الكـبير من الأسماء (أسماء الأشخاص) التي روجت لها وتعاملت بها، وكان يمكن لهذا العدد أن يكون أكثر بكثير مما هو متوفر لدينا، لو أن صائغ المثـل ذهـب في كـل الحـالات للتعامـل الصريح مع الأسماء، ولم يذهب إلى إسقاط ما يريد أن يقولـه علـى شـخص مـا، بقولـه: (فلان) أو (علان) هكذا بصيغة معممـة، أو علـى الحيوانـات وذلـك تفاديـاً للحـرج أو المشاكل الاجتماعية التي قد يجرها موقفه هذا، بسبب ما يمكن أن يحملـه المثـل مـن معـان سلبية.

ومن خلال قراءة متفحصة لمجموعة الأمثـال الـشعبية الـتي تعاملـت مـع الأسمـاء والأشخاص، نستطيع تقسيمها إلى ما يلي:

1) أمثال كانت صريحة بإيراد أسماء الأنبياء والرسل:

مثل اللي اسلم الظهر ومات العصر، لا عيسى شفع له ولا محمد دري فيه

هو نوح مات ووصاني ع ذريته

ع مين تقرأ مزاميرك يا داود؟

مثل صبر أيوب

وقد وردت تعـابير ومـصطلحات كـثيرة في الأمثـال حملـت وصـف (بـني آدم) أو (بنيادم) نسبة إلى سيدنا آدم (عليه السلام) ومن بينها قول المثل:

كلنا أولاد آدم

كما جاء في الأمثال كلمات (النبي والرسول)

وقد ضرب المثل في جمال سيدنا يوسف (عليه السلام).

2) الملائكة كقول المثل:

يا هارب من عزرائيل أجاك قباض الأرواح

وقد ورد اسم إبليس في عدد كبير من الأمثال الشعبية، والتي جاءت جميعها في موضع الإدانة لإبليس والتهكم عليه... ومنها:

عشم إبليس في الجنة

شعرة من ذقن إبليس بركة

رزق الخسيس لأبليس

لو أنه إبليس بطيح الجنة، الحماة بتحب الكنة

3) أسماء جاءت للأمثال من التاريخ والتراث الشعبي:

الحسن أخو الحسين

في إشارة واضحة إلى سبطي الرسول العربي محمد (ﷺ)، أبناء فاطمة الزهراء.

فرعون:

حظي فرعون ملك مصر بعدد من الأمثال الشعبية، التي تدلل في جانب من جوانبها على الصورة التي ارتسمت لهذا الملك في الذاكرة والوجدان الشعبي.

قالوا يا فرعون مين فرعنك، قال من قلة ما حدا ردني

ع هامان يا فرعون

وهامان هذا وهو وزير فرعون وساعده الأيمن

عنتر:

وهو عنترة بن شداد العبسي، الشاعر الفارس، الذي حمل لنا التاريخ العربي الكثير من صور البطولة والفروسية عنه:

شايف حالو عنتر

عنتر شايل سيفه

من معرفته بالصحابة ترضى على عنتر

أبو زيد:

وعلى الأغلب هو أبو زيد الهلالي بطل السيرة الهلالية، التي كثيراً ما تناقلها الناس في ليالي سمرهم:

عامل حالو أبو زيد

كنلك يا بو زيد ما غزيت

لو أبو زيد بجدد حدد في بلاده

جحا:

وهو الشخصية المضحكة التي حملتها لنا الحكايات الشعبية، فهل كانت شخصية جحا حقيقية أم لا؟ الأمثال هنا أعطت لجحا نصيباً وافرا من اهتمامها وقالت بحقه ما لم تستطع أن تقوله في غيره، ربما لأن شخصيته تحتمل، ولأنه شخص لا يعرفه أحد، أو هو موجود في كل مكان:

عد غنماتك يا جحا، واحدة نايمة وواحدة قايمة

لو جحا بعمر عمر في بلاده

قالوا لجحا ليش قاعد بباب الفرن، قال الرزق من هون

جحا طول عمره بلا طربوش، هلقيت راسه برد

عزموا جحا على العرس قال يا لزق المي يا لتكسير الحطب

4) أسماء أخرى:

وردت في الأمثال الشعبية مجموعة أخرى من الأسماء، هي الأسماء الأولى لأشخاص قد يكونون حقيقيين أو وهميين، الأمثال لم تصرح بالأسماء الكاملة ربما لاعتبارات شخصية أو عشائرية أو اجتماعية، واكتفت بالأسماء الأولى في حوادث يمكن أن تنطبق على كل الأسماء في كل الأماكن.

من هي هذه الأسماء؟ ما مكانتها الاجتماعية؟ ما تأثيرها؟ لماذا تم اختيارها دون غيرها ؟ أسئلة كثيرة قد تواجهنا، غير أن الأمثال التي بين أيدينا لم تقدم لنا إجابات على تلك الأسئلة، مع أنها حملت معها شيئاً من السخرية والتهكم على بعض هذه الأسماء:

مثل قردة عيسى

عامل حالو أبو علي

فلان مثل كرباج الشيخ فرج

الله يهني سعيد بسعيدة

عمر عواد ما بعيدها

كثر الهم بقتل يا سلامة

فلان مثل عنزة أم عيسى

جبناك يا عبد المعين تعين، تاريك عيان

الليع بال أم حسين بتحلم فيه بالليل

نزلت العبدة ع السوق ما استحلت غير شفايف مسعود

ولا يوجد هنا دليل مقنع لاختيار هذه الأسماء دون غيرها، لتكون مادة للمثل الشعبي، مع احتمال وجود أسماء أخرى كثيرة، لم يرد ذكرها هنا، وجاءت في أمثال لم تتوفر بين يدي، ويمكن تفسير مثل هذه الحالة كالآتي:

- إن ضرورة السجع اللغوي، كانت وراء اختيار الاسم وصياغة المثل، الذي ينطبق بالضرورة على كل الأسماء والحالات... كقول المثل:

رجعت حليمة لعادتها القديمة

كثل صفية المشتفية

صفي الميدان لحميدان

الدنيا مصالح يابو صالح

خذ من عبدالله وتوكل على الله

كما حنا كما حنين الله ينعل الجهتين

بين حانا ومانا ضاعت لحانا

على بين ما تتحفتل حنه بتسكر أبواب الجنة

عبدالقادر قوام اشتغا، موش قادر، قوم كل حاضر

قالت أن أسلمت سارة لا زودت المسلمين ولا قللت النصارى

وهذا يتطابق مع قول الشاعر العربي القديم

(ما زاد حنون في الإسلام خردلة ولا النصارى لهم شغل بحنون).

من الممكن جداً أن تكون حدثت معه حالة معينة، مع شخص معين في زمان ومكان معينين أيضاً، وذهبت الحالة هذه، التي وصلت إلى أفواه الناس، موضع الأمثال، أي من المحتمل جداً أن يكون لكل مثل قصة حقيقية، وقعت مع شخص بعينه، إلا أن المثل نقل لنا اسم صاحب القصة فقط، دون أن يشير إلى زمان ومكان تلك القصة، لأن هذه ليست مهمته.

لأن بعض هذه الأمثال جمل صيغة التهكم والسخرية على الشخص الذي حمل المثل اسمه، فإن بعض الضرورات الاجتماعية والعشائرية والأخلاقية، التي حكمت المجتمع في ذلك الحين، منعت صائغ المثل من التصريح بالاسم أو العنوان الاجتماعي، لكي لا يجد نفسه في صراع هامشي.

وباستثناء أسماء الرسل والأنبياء وأسماء الشخصيات التاريخية التي وردت في الأمثال الشعبية، فإن مستخدمي هذه الأمثال لم يتوقفوا أمام الأسماء الأخرى التي وردت في الأمثال، ولم يسألوا عن أصحابها الحقيقيين، مادامت تؤدي غرضها المفترض في التعبير عن الحادثة الاجتماعية والدلالة على مفهومها.

ومن هنا تبدو هذه الأسماء غير ذات معنى، وفي الغالب قد تكون أسماء لأشخاص حقيقيين وجدوا أنفسهم في مواجهة المجتمع أو بعض فتاته، فذهبت تصرفاتهم في مواجهة تلك الأحداث مثلاً يتداوله الآخرون.

واللافت للنظر أن أسماء نساء وردت في أكثر من مثل شعبي، في مجتمع محافظ ذي علاقات تقليدية كان ينظر للمرأة باعتبارها عورة، فكيف إذن يتم تداول اسمها في

الأمثال، ما يشير إلى أن نساء أخريات هن من يقفن وراء صياغة مثل هذه الأمثـال، الـتي احتوت على أسماء بنات جنسهن، وهن من يقفن وراء ترويجها في المجتمع.

5) ألقاب اجتماعية:

حملت الأمثال أيضاً مجموعة من الألقاب الاجتماعيـة الـتي تعـني بشخـصيات قـد تكون حقيقية، الأمثال هنا صرحت بالألقاب وتجاهلت الأسماء، لأنهـا يمكـن أن تنطبـق على جميع الحالات المشابهة، ومن هذه الألقاب:

السلطان، الأمير، الشيخ، الباشا، المطران، الخوري، وغير ذلك:

كلها وادعي للسلطان بالنصر

اللي بدفع فلوسه بنت السلطان عروسه

اللي بيوكل من مال السلطان بيضرب بسيفه

أنا أمير وأنت أمير مين يسوق الحمير

إن عاشرت عاشر أمير وأن ألبست ألبس حرير

كلب الشيخ شيخ

عبالي الباشا باشا وأثاري الباشا زلمة

زي حمار المطران

بيجي الموت للخوري بيبعثه للخورية

يبدو واضحاً من خلال الأمثال السابقة، أن هنالك نوعين من هذه الأمثال.

- واحد قيل على لـسان المتنفـذين مـن أصـحاب الـسلطة، الـذي يعطـي الهيبـة لصاحب اللقب، ويجعل بالتالي مسافة واضحة بينه وبين عامة الناس، وفي هذا

ما يؤكد على موقف طبقي واضح المعالم، لا يبتعد كثيراً عن محاولات الاستهانة بالآخرين والتوعد لهم.

- أما النوع الثاني فقد قيل على لسان بسطاء الناس، وإذا كان بعض هذه الأمثال يحمل إذعاناً واستسلاماً لرغبة أصحاب بالنفوذ، فإن في بعض الجوانب الأخرى ما يوحي بالتهكم والسخرية، الأمر الذي يفسر أن هناك محاولة للتمرد على أصحاب هذه الألقاب، وما يمثلونه من سطوة ونفوذ وقوة اجتماعية وسياسية واقتصادية، وهو نوع من التمرد السلبي على تلك المعادلة الاجتماعية.

الحجر

كان الحجر موضوعاً للعديد من الأمثال الشعبية، الوصفية والحسية، كان في بعضها مثالاً للقسوة، وفي بعضها الآخر مثالاً للمكانة الرفيعة، في بعضها إيجابياً وفي بعضها الآخر سلبياً، هو مصدر للرهبة والاعتزاز وهو في موقف آخر مثال للدونية والاحتقار.

غير أن الحجر في جميع حالاته هذه بقي مرافقاً لمسيرة العربي، استوطن وعيه وذاكرته من خلال هذا العدد غير القليل من الأمثال الشعبية، فهو مثال للقسوة والجمود واللامبالاة حين يقال: (قلبي على ولدي وقلب ولدي علي حجر)، في حين يقفز إلى حالة من الاعتزاز الموضوعي الواقعي في قولنا (الحجر في مطرحو قنطار) فمهما كانت قيمة هذا الحجر وأهميته وحجمه، فإنه يساوي قنطاراً عند حاجته، ولا يعادله شيء في ذلك، وعدم الاستهانة بالحجر مهما كان صغيراً، حفظتها الذاكرة الشعبية بقولها (الصرارة بتسند حجر) لأن هذه الصرارة مهما كان حجمها وتأثيرها، فلها موقعها وأداة فعلها واستعمالها حيث أن (الجبال من الحصى).

والحجر في الأمثال الشعبية هو الأداة المرتبطة بفعل فاعل، هذا الفاعل هو الذي يحدد دور الحجر وأهميته ومكانته، فلا دور للحجر باعتباره حجراً، إلا بمقدار استجابته لأداء دوره في الحياة العامة، فهو عاجز عن الفعل المؤثر إلا بمقدار ما يراد له أن يكون، لأن الحجر (ما لو عينين ولا ذنين) فهو مسير وموجه حسب أرادة راميه، غير أن فعل هذا الحجر وتأثيراته تظل تابعة لأهداف ووعي من يتحمل مسؤولية استعماله.

ففي الوقت الذي أكد فيه المثل الشعبي أن (مجنون دب حجر في البير مية عاقل ما عرفوا يطلعوه) فإنه نبه إلى ضرورة الوعي في استعمال الحجر، لأن (المجنون ما يتسلم حجر).

وقد حاول المثل الشعبي أن يؤكد كثيراً على ضرورة استعمال الحج، هذا الجماد الذي لا يدرك ولا يعرف حجم العواقب أو النتائج، فإذا مت غفل عنه الإنسان فربما

يصيبه الضرر منه، ويقع ضحية العبث في عدم إدراك المسؤولية، فإنه (مثـل حجـر الحبلـة إذا فلته فرط رجليك) وأن (الحج اللي بتستهونه بيقرط أصبعك).

وفي الوقت الذي أكد فيه المثل الشعبي على قسوة الحجـر وعلـى ضـرورة الانتبـاه لطريقة استعماله بشكل سليم بعيد عن الضرر والمجازفة، فإنـه أشـار إلى أن هـذه القـسوة تهون أمام حالة إنسانية واجتماعية راقية يجب أن تتوفر في المجتمع، ويجـب أن يـتم الـدفاع عنها بكل صلابة ووعي، هذه الحالات الإنسانية الإيجابية هي الصورة المشرقة الـتي يجـب على المجتمع إشهارها وعلى الذاكرة الشعبية حفظها وتعميمها، فمن هـذه الحـالات قـول المثل الشعبي (عليك بالجار ولو راجدك بالحجار) حيث أن الاهتمام بالجـار يفـوق قـسوة استعمال الحجارة، وان هذه القسوة تهون أمام الحرص على العلاقة الإيجابية الحسنة بـين الجيران، ثم قول المثل الشعبي (اللي بيته من كزاز ما يضرب علـى النـاس حجـارة) وهـو قول فيه الكثير من الحرص على أن تسود العلاقة الجيدة بين الناس، حيث نـادراً مـا نجـد إنساناً خالياً من العيوب، وعليه فإن بيوتنا كلها من (كزاز) فـلا يجـوز أن تـضرب النـاس بالحجارة، لأن هذه الحجارة سترتد إلى بيوتنا كوننا نمتلك من العيوب مثلما يمتلك غيرنـا، وهذا ينسجم إلى حد كبير مع قول الإمام الشافعي:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ

فكلك عورات وللناس ألسن

ثم أن الذاكرة الشعبية حفظت من خلال أمثالها دوراً إيجابياً آخر للحجارة، وأكدت عبر أكثر من مثل شعبي أن للحجر دوراً إيجابياً (قادماً) وعليه فلا يجوز الاستهانة به أو التفـريط فيه لأن (حجارة الصيف بتنفع للشتا) وكذلك فإن حرصنا وادخارنا سيوفر لنـا الكـثير دون أن نشعر بالإرهاق، لأن المثل الشعبي أكد لنا بأننا بـ(حجـر علـى حجـر نـبني دار). وركـز المثـل الشعبي أيضاً على ضرورة تحفيز الإنسان من أجل استثمار الفرص وعدم إضاعتها هبـاء، مؤكداً على أن هناك الفرص التي تأتي بالكثير حين يستطيع المرء (أن يـضرب عـصفورين بحجر واحد) وأن يستفيد من مثل هذه الفرص المتاحة.

هذه بعض الأمثال الشعبية التي حفظتها الذاكرة الجمعية والمتعلقة بالحجر ودوره في الحياة العامة للشعب. ثم أن الحجر يدخل في تفاصيل الكثير من الأمور الحياتية للمواطن مما جعله قريباً منه قريباً عليه.

ومن استعمالات الحجر في الحياة العربية أنه يستعمل لبناء البيوت، ويستعمل لحفظ التربة من الانجراف حين يقوم الفلاح ببناء (السلاسل) في أرضه، خاصة الجبلية منها، وهناك حجر (الطاحونة) الذي يستعمل في طحن القمح والعدس والفول وغيرها من الحبوب، وهناك حجر (الطفح) أو (الدراس) الذي يستعمل في تحضير زيت الزيتون، وهناك حجر (القصة) الذي يستعمل مكاناً للجلوس أمام البيوت في ليالي الصيف. وبعد هذا العرض السريع لدور الحجر في الذاكرة الشعبية واستعمالاته في الحياة العامة، يمكن لنا أن نتساءل هل كان دور الحجر في النضال الوطني الفلسطيني بشكل عام، ويوميات الانتفاضة المباركة بشكل خاص، مفاجأة لشعبنا؟ أننا لم نتفاجأ، لأن الحجر منذ الكنعانيين الأوائل امتلك دوراً مهماً في حياة الفلسطينيين، سواء سكنوا في الجبل أم في السهل أم في الغور، ولأن الفلسطينيين – ليسوا مجانين – إلا بحبهم لوطنهم، فقد تسلموا الحجر وأحسنوا استعماله، واكتسب الحجر أهميته من سواعدهم، ومن الأهداف العظيمة التي من أجلها يضربون الحجارة، فقد ضربوا بها رأس الأعداء، وسار خلفهم ملايين من (العاقلين) الذين وجدوا للحجارة وظيفة رائعة، وظيفة أضافها الفلسطينيون لاستعمالات الحجارة.

الطب الشعبي

عرف المجتمع الفلسطيني مثل غيره من المجتمعات استعمال الأعشاب لعلاج العديد من الأمراض، فكانت الميرمية والبابونج والزعتر وغيرها، كما كان الكي واستعمال الملح علاجاً لعدد من الأمراض أيضاً.

وفي فترة ليست بعيدة كان الحلاق يقوم بوظيفة الطبيب في المجتمعات التي يسودها الجهل، وتحديداً في الأوساط البدوية والريفية.

ولأن الصحة والقوة والعافية هي الأساس في مجتمع يعتمد كلياً على القوة العضلية في أعماله واحتياجاته، فقد ركز المثل الشعبي على هذا الجانب، منتجاً الكثير من الأمثال التي تدعو إلى الوقاية من الأمراض.. وتوضح بعض طرق العلاج لها، معتمدة على المثل الشعبي القائل (العقل السليم في الجسم السليم) غير أن هذا القول ليس نهائياً ويحتاج إلى إعادة نظر، لأن هناك عقولاً مبدعة كثيرة في التاريخ القديم والحديث لم تكن أجساد أصحابها صحيحة تماماً، وهذا يتطلب بحثاً خاصاً مدعوماً بالشواهد والأسماء.

إن مجتمعنا مجتمع مؤمن بطبيعته، وهو بالتالي مقتنع بأن (ما حدا بموت إلا تاتيجي ساعته) رافضاً بفطرته موضوعة الانتحار أو الاستسلام للموت، معبراً عنها بسخرية وتهكم بقوله (ينعل أبو اللي بموت من خاطره) وعليه فقد شخص أسباب المرض واستطاع بتجربته اكتشاف أسباب علاجه، لأن (الله خلق الأذى وخلق الطب والدوا) ومن هنا يكون منطقياً القول (درهم وقاية خير من قنطار علاج).

وللوقاية من الأمراض مجموعة من الطرق والأسباب التي انتبه إليها المثل الشعبي، ودعا إلى الاعتماد عليها لعل في مقدمتها:

نوعية الطعام وجودته:

من أجل بناء الجسم وصحته، فالطعام الجيد هو الذي يبني جسماً صحيحاً قوياً يساعد صاحبه في أداء دوره ووظيفته على أحسن وجه، لأن الذي (يوكل على ضرسه بينفع نفسه).

والمثل لم يخترع أنواعاً من الطعام غريبة عن طبيعة المجتمع، بل أكد على ما هو متوفر في أرضه وبين يديه، مكتشفاً ذلك بالخبرة والتجربة الطويلة، فكثير من مناطق بلادنا تشتهر بزراعة الزيتون، ولهذا فقد حظي زيت الزيتون بالكثير من الاعتبارات الطبية، ودخل في علاج العديد من الأمراض، فمن تؤلمه أذنه يعالجها بالزيت، ومن تتشنج عضلاته (يمرجها) بالزيت الفاتر أيضاً، وهكذا تورثنا هذه العادة إلى يومنا هذا، ومنها أن يدهن جلد الطفل الحديث الولادة بزيت الزيتون، طمعاً في تقوية عظام جسده، من هنا عرف المجتمع قيمة الزيت الغذائية، فقالوا عنه (الزيت مسامير الركب) وقالوا لأبنائهم منذ وقت مبكر (كل زين وانطح الحيط) لما يمكن أن يمنحه الزيت من قوة عضلية للجسم.

واكتشفوا ما يحتاجه الجسم من الغذاء مؤكدين ذلك بالقول (أن قل الضاني عليك بالقطاني)، صحيح أنهم أعطوا الأولوية للحم الضأن، لما فيه من بروتينات ومواد غذائية أخرى، لكن من لا يستطيع شراء اللحم، فيمكن التعويض عنه بالبقوليات الغنية بمادة البروتين أيضاً، وهي متوفرة بكثرة ويزرعها الفلاح في أرضه.

وطريقة تناول الطعام لم يغفلها المثل الشعبي لترابطها أيضاً مع الطعام وفائدته الغذائية، فهو في الوقت الذي يقول فيه (غُب غب الجمال وقوم قبل الرجال) فإنه حذر من الشريك في الأكل، ممن لا تتوفر فيه شروط النظافة، فقال (كل مع الكافر ولا توكل مع طويل الأظافر) لما في ذلك من شبهات قد تسهم في نقل الأمراض عبر الجراثيم التي تختفي تحت الأظافر الملوثة.

والطعام الذي دعا إليه المثل الشعبي ليس في كميته فقط، بل في نوعيته أيضاً، لأن هذه النوعية هي التي تقهر الأمراض وتحافظ على سلامة الجسم، وإلا فإن الذي يأكل طعاماً لا فائدة منه، ينطبق عليه القول (دايخ مثل اللي ميكل نخالة) فالنخالة هذه لا تسمن ولا تغني من جوع، حيث أن (الرز واللبن عافية على البدن) هذه العافية التي ستنعكس بالضرورة على نوعية وإنتاجية الفلاح.

ولم يكن الطعام ونوعيته فقط هو ما نبه إليه المثل الشعبي، وعد انتفاءه سبباً للإصابة بالأمراض، وجودته سبباً في الابتعاد عنها، فقد أكد المثل أيضاً أن البرد يظل أهم الأسباب التي تأتي من الأمراض، وقد جاء ذلك في أكثر من مثل شعبي (فلان زي البرد سبب كل علة) وكذلك في قوله (البرد والقلة أساس كل علة) مؤكداً أن البرد والجوع هما الركيزتان الأساسيتان لانتشار الأمراض والأوبئة، وقال أيضاً (برد الصيف أحد من السيف)، وانطلاقاً من هذا فقد تعامل المثل الشعبي مع الأهم على حساب المهم قائلاً (دخان يعمي ولا برد يقتل) ولأنه أدرك بطبيعته أن (الدفا عفا) فقد نصح المريض الذي داهمه المرض بالطريقة التي ينتصر فيها عليها قائلاً له (نام دافئ بتصبح متعافي).

وقد نبه المثل الشعبي أيضاً إلى مجموعة من الاحتياطات التي تسهم في بناء جسم سليم بعيد عن الأمراض والأوجاع، ففي الوقت الذي قال فيه (السهر سوس العظام) لما فيه من تعب وإرهاق للجسد، فقد أعطى النقيض الأفضل بقوله (نام بكير وفيق بكير وشوف الصحة كيف بتصير).

ولم يكن الطعام أو البرد أو السهر هي فقط أسباب المرض، فهناك أسباب أخرى تكمن في طبيعة البيت والسكن، فقال المثل (البيت اللي بتدخلوا الشمس بدخلوش الطبيب) لأن أشعة الشمس تقتل الرطوبة والحشرات، وتعمل على تنقية أجواء البيت الذي يقضي فيه المواطن جزءاً مهماً من يومه، فإذا ما توافرت الشروط الصحية في البيت ومن أهمها دخول الشمس فيه، فإن المرض سيغادره ولن يجد له مكاناً هناك.

وإذا كان المثل الشعبي قد حذر من الأمراض قبل وقوعها، ونبه إلى طرق الوقاية منها، فإنه لم يقف متفرجاً عند وقوع الأمراض فعلاً، وانطلاقاً من قوله (أسأل مجرب ولا

تسأل طبيب) فإن الحكمة أكدت أن (الوجع ما بيوجع إلا صاحبه) لـذلك حرصـت عـل توجيه المريض نحو الأساليب المجربة في العلاج، للشفاء من هذا المرض أو ذاك، إلا أنـه في بعض الأحيان يكون من الضروري التضحية بالجزء من أجل سلامة الكـل، أو التغاضـي عن بعض المعتقدات أو المحرمات، انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف (الضرورات تبيح المحظورات) وعليه فإن (الداء الخبيث مالوش إلا الدوا النجس) وهناك أيضاً (أقلع السن وأقلع وجعه) اعتماداً على تجربة تقول (وجع ساعة ولا كل ساعة) لأن بعض الأمـراض لا ينفع معه الدواء العادي بل يجب اجتثاث المرض من جذوره.

والجو الذي يعيش فيه الإنسان لـه علاقـة بطبيعـة مرضـه، فـالهواء النقـي وأشـعة الشمس سببان هامات في العلاج حيث أن (تغيير الهواء أحسن من تغيير الدوا).

صحيح أن المثل الشعبي قد تعامل في الغالب مـع الأمـراض الخفيفـة الـتي تـصيب معظم الناس، محاولاً عدم الخوض في طرق العلاج للأمـراض الـتي تتطلـب جهـداً طبيـاً أعلى، لأن التجربة في مثل هذه الحالة قد يكون ثمنهـا باهظـاً، خاصـة أنهـا تتعلـق بحيـاة الإنسان ومصيره، وقد اكتفى المثل الـشعبي بـالقول في مثـل هـذه الحـالات (الكـي آخـر العلاج) معتبراً أنه يصلح لعلاج كـل الأمـراض، لكـن المثـل حـاول في بعـض الأحيـان التقليل من أهمية المرض والتخفيف عن صاحبه ومواساته بقوله (أن سـال دمـك انفـرج همك) وقد يكون في هذا جانب نفسي أكثر من كونه جانباً علمياً.

ودعا المثل إلى العلاج بالطرق البسيطة لأمراض وأوجاع الرأس والمعدة بقولـه (أن أوجعك رأسك كرمه، وأن أوجعك بطنك أحرمه) مشيراً في جانب آخر إلى نـوع مختلـف من وسائل العلاج بقوله (كاسات الهوا بتقيم عله بلا دوا) ولأن المثل الـشعبي ينطـق عـن حكمة وتجربة فلا بد من الاستماع له بتطبيق نصائحه حين يصف حـالات الزكـام بقولـه (أول الرشح أفرش ونام وآخرته روح ع الحمام) كـل هـذا دون أن يبـدي أي تهـاون في التعامل مع الأمراض مهما كان سببها، أو عدم الاهتمام بأساليب علاجها بقولـه (أربـط أصبعك منيح، لا بدمي ولا بقيح) لأن العلاج الصحيح يكون قد أخذ طريقه للشفاء.

وقد أشار المثل الشعبي إلى بعض الأمراض التي قد لا تكون طارئة، بل أنها يمكن أن تكون متوارثة أيضاً، حين أشار إلى حالة يمكن أن تنعكس على غيرها من الحالات بقوله (اللي يطلع في قفا أبوه دمل بطلع في قفاه).

وانطلاقاً مما تقدم يتأكد لدينا كم هي الخبرة والتجربة التي بنيت عليها كل هذه الحصيلة من الأمثال الشعبية، ومع ذلك يظل للطبيب الدور الأساسي الذي لا يمكن إغفاله أبداً، وقد أكد على ذلك المثل الشعبي بقوله (لولا المداوي ما عرفت أنا أداوي).

ما يمكن أن نلاحظه في هذا المجال أن المثل الشعبي تعامل مع الأوجاع والأمراض بشكلها الحسي المرئي، انطلاقاً من تشخيصه للمرض وتشخيصه للعلاج أيضاً، في الوقت الذي كان فيه حذراً جداً في التعامل مع الأمراض بجانبها النفسي، ربما لأنه لم يعترف بها كأمراض، أو ربما لأن مثل هذه الأمراض تحتاج إلى متابعة أدق وتفرغ لم يكن الفلاح قادراً على توفير الوقت لذلك، أو ربما أن وعي صائغ المثل وناشره لم يكن قادراً على استيعاب هذا النوع من الأمراض التي يمكن وصفها بالحديثة.